الالفة البشرية

اطّلعنا على خطاب نفيس من قلم حضرة العالم المدقق المنسيور يوسف اللم الوكيل الاسقفي في بيروت تلاهُ مساء ٢٨ حزيران في دائرة غرفة القراءة لاخوية القديس مارون فوقع منّا موقعاً حسناً واحببنا نشرهُ في المجلّة لنفائسهِ وهذا هو بنصهِ:

لقد خُلق الانسان أليفاً مؤالفاً

انّني رأيتُ بهذه المقالة ان أُبيّن لكم يا معشر الادباء الكرام ان الالفة بين الناس طبيعيّة وان الخالق جلّت حكمتهُ قد خلق الناس للالفة لمقاصد منهُ شريفة عائدة الى خيرهم وكمالهم في هذه الدنيا وهي تفضي بهم الى السعادة الخالدة الى الله مرجعهم ومن ذلك نتطرّق الى بيان كون الجمعيّات والشركات والاخويّات والمحافل الادبيّة وما اشبه من المجتمعات الخصوصيّة التي تتألف من افراد من خيار الناس لمقاصد خيريّة عموميّة كمقاصد جمعياتكم النبيلة هي مكمّلة الالفة البشريّة او بعبارة اخرى هي الالفة الكاملة

*

لقد زعم البعض ان الانسان وُجد في اصلهِ معتزلاً متوحّداً في حالة همجيّة هي اشبه شيء بحالة حيوان البرّ او وحش القفر لا بل أوجدوهُ في حالة احطّ منهُ اذ تصوّروه وصوّروه ضارياً مفترساً لا عيشة لهُ الّا بمراعي شهواتهِ كالبهائم ولا شغل لهُ الّا بتناصبة ابن جنسهِ والبطش بهِ على حين انّ الوحوش الضارية لم توجد في هذه الحالة العدائيّة لبعضها فالآساد او الذئاب مثلاً لا يبطش بعضها بالبعض الآخر والّا لبادت منذ أمدٍ بعيد. وها نحن نرى الاطفال الصغار الرضاع تكذّب تصوّرات هؤلاء بما يبدونهُ لبعضهم من التقارب والتحابّ من ذاتِ طبعهم بحيث لو اردتَ فصل الواحد منهم عن اخيهِ لوجدتَ فيهم تمنُّعاً وصعوبةً

ثم انّهم بهذه الصورة التي احبّوا ان يصوروا فيها الانسان لم يُبقوا على نفسهِ الشريفة التي تترفّع عن هذه المنزلة الدنيّة البذيّة. فهو السيد العظيم المتسلّط على هذه الموجودات كالطيور والاسماك والحيوانات وسلطتهُ هي من العلاء من لدن الله تعالى لقولهِ (مز ٨: ٧) « وعلى اعمال يديك سلطتهُ الغنم والبقر وجميع حيوان البرّ ». لكنّهم لفساد افكارهم

جعلوها اشرف منهُ وهذه سفاسف منهم ساقطة لا يُعبأ بها وما اشبهها بالحكايات والخرافات او هي تخيُّلات وهميَّة لم يوردوا عليها من بيّنة ولا حجّة. وها ان تواريخ جميع الامم لم تورد شيئاً عن حالة الانسان هذه الوحشيَّة الفرديَّة الذميمة. نعم ذكرت التواريخ تقدُّم الالفة في أمَّة دون امَّة وتفاوت شعبٍ عن شعبٍ آخر فيها باستكمال اسباب المعيشة ونظامها لكن لم تُفِد تلك التواريخ ان الطائفة البشريَّة وُجدت افرادُها كلٌّ منهم معتزلاً متفرداً عن الآخر لا يألفهُ ولا يراعيهِ لا بل لا شغل لهُ الَّا بمناصبتهِ ومحاربتهِ حرباً عواناً متصلة لا هدنة فيها ولا صلح. على أنهُ لو فُرض وجود بعض البشر على تلك الحالة فذلك من الشوارد النوادر وعلى النوادر لا تُبنى قاعدة ولا قياس وهو كمن يُولد اصمَّ أبكم او ذا عاهة. واذا بحثنا عن حقيقة شرودهِ وجدنا السبب وعند معرفة السبب بطل الاعتراض على هذا المبدأ الذي لهُ من الادلَّة اللامعة والحجج الساطعة ما لا يُعَدّ ولا يُحصى وكلها تؤيد كل التأييد كون الانسان من طبعهِ وُجد أليفاً موَّالفاً او كون الالفة وجدت بين الناس من اصلهم. ونحن نكتفي الآن لضيق المقام بايراد بعضها فنقول :

١ (اوَّلاً) ان الانسان بحال دخولهِ هذا الكون طفلاً صغيراً نراهُ يحتاج كلّ الاحتياج الى وسائط ووسائل خارجيَّة لوقايتهِ وحياتهِ بخلاف الاسماك والطيور والحيوانات العجماء. فان الطبيعة توتيها ما يلزم لوقايتها ومعيشتها فالانسان اذاً مولود وموجود للمخالطة والالفة من ذات الطبيعة. قال القديس توما فيلسوف النصرانيَّة الشهير: « انهُ طبيعيٌّ للانسان اكثر جداً من جميع الحيوانات ان يكون حيواناً اليفاً سياسياً عائشاً بين جماعة. ودليلهُ حاجاتهُ الطبيعيَّة فان الطبيعة قد اعدَّت لباقي الحيوانات غذاءها وكساءها وصوانها كالجلد والصوف والمخالب والبراثن والقرون والاظافر او على الاقل كالاسراع الى الفرار والنجاة بخلاف الانسان فالطبيعة لم تُعطهِ شيئاً من هذه بل أعطتهُ بدلاً منها فهماً مع ممارسة يديهِ لتحصيل هذه اللوازم. ولكن لا يكفي انسان واحد لتحصيل هذه كلها لان الانسان الواحد غير كفوٍ من نفسهِ لان يحيا اذ انهُ وحدهُ لا يكفي لتحصيل حاجات المعيشة. وزد عليهِ انَّ باقي الحيوانات غُرس فيها من طبعها ان تحسَّ بما ينفعها وما يضرُّها فالنحلة مثلاً تنفر طبعاً من الذئب لانهُ عدوُّها وبعض الحيوانات تحسّ بان عشبة كذا هي دواء شافٍ لها او انها ضروريةٌ لا لحياتها بخلاف

الانسان فانهُ يتوصّل الى معرفة ضروريّات حياتهِ ولوازم معيشتهِ بمفرداتها الّا بالالفة لانّ الواحد لا يستطيع الوصول الى معرفة كلّ من هذه اللوازم والى تحصيلها باستعمال ما عنده. فترتّب عليهِ ان يعيش بين كثيرين يساعد احدهم الآخر على تحصيل لوازم المعيشة متشاغلاً كلّ منهم بكل منها »

وها نحن الموجودين هنا نرى مصداق ذلك فينا فالملابس التي نلبسها من صوف وكتان وحرير وجوخ مثلاً كم اقتضت من الاعمال والعمّال فالحرير مثلاً كم اقتضى من الاشغال كغرس توتٍ في الارض وحراثتهِ وملاحظتهِ مدّةً لقيامه ثم استجلاب بزر الدود ثم تربيتهُ ثم شغلهُ في المصانع والمعامل ثمّ ... ثمّ ... الى ان صار يصلح للبس. ومنهُ الطعام الذي نأكلهُ فاننا نسعى اولاً في طلب البذار ثم في شغل الارض لزرعهِ فيها. والحارث الذي يزرعهُ يحتاج الى محراث وهذا يحتاج الى نجارة وحدادة واشياء أخر لربط ادوات الحراثة. والزرع في الارض يحتاج الى نظارة وملاحظة ثمّ حصاد. وهذا يحتاج الى ادرات رفعة وبعد الحصاد الدراس وهذا يحتاج ايضاً الى مثل ذلك. ثم الى الطحن والطحن يلزمهُ مثل ذلك. وبعد الطحن يلزمهُ عجن وخبازة وكل هذه تحتاج الى ما تعرفونه. واذا انتقلنا من الخبز الى باقي الوان الطعام الذي نأكلهُ وجدناها مثل الخبز في كثرة حاجاتها وحساباتها. واذا قمنا عن الطعام الى السرير الذي نرقد عليهِ وجدنا الامر كذلك. ومثلهُ البيت الذي نسكنهُ. ومثلهُ الفرش والاثاث والرياش التي تزينهُ فلو عددنا بتدقيق كل ما لزمها من الوقت والشغل والمتشاغلين والبيع والشراء حتى توصّلت الينا لاقتضى ذلك رجوعهُ كثيرين كما يعرف كلّ منا

واذا نظرنا الى ما يختص بنا من لوازم العقل او النطق لتخريجهِ وتفقيههِ في المعارف والعلوم أيّةً كانت رأينا ان ذلك قد استلزم اتعاباً وانصاباً اشدّ كما استلزم ايضاً اجيالاً وأحقاباً. فكم وكم من الناس تشاغلوا في امر اللغة التي نعرفها من جمع كلماتها وتفسير عباراتها واشاراتها وضبط حركاتها وربط قواعدها وبيان مواردها خلا الذين وضعوا اوضاعها وحاكوا بضاعتها وصاغوا متاعها وانشأوا معاهدها واقاموا محاتدها فانّ طول المدى بيننا وبينهم يحول دون معرفة ما لاقوا من المشاقّ وصرفوا من الأيام والاعوام في مدّهم امامنا بحراً من لغتنا العربيّة الشريفة التي ترفّ باجنحتها على اكثر اللغات في تقادم عهدها وعراقة مجدها وغزارة موادّها وتفنّن ابائها واجدادها حتى لو قضى الواحد عمرهُ

في مطالب غناها ومباحث خبرها ومبتداها لفاتهُ منها امورٌ شتَّى ومات وفي قلبهِ شيءٌ من حتَّى . وما لنا ولهذا التطويل وكفى اللبيب منهُ اشارة فلنعد الى موضوعنا وفيهِ قال المعلم ڤيكتور كوزين : « لست ارى قولكم بانَّ الانسان ليس هو من طبعهِ اليفًا الَّا تخيُّلًا ووهمًا . قولوا لي ايُّ امتحان سوَّل لكم ان تقضوا عليهِ بانهُ من طبعهِ غير ميَّال الى الالفة ؟ لا بل ايُّ امتحان ادَّى بكم الى الريب في ذلك ؟ نعم ان الاختلاف في الاعصار والامصار والاصول والفصول قد البس هيئة الالفة ملابس مختلفة وصوَّرها في صور واشكال متباينة الَّا ان مبدأها واحد وما زال كذلك . ولو فرضنا ان قد غشيهُ طارئٌ من افات الالفة ذات وقت الا انهُ لم يلبث ان عاد باسرع ما يمكن الى عهد جمالهِ زاهيًا زاهرًا »

٢ ان الطبيعة ميَّزت الانسان عن غيرهِ من الحيوان بقوة النطق والكلام ولكن ايُّ فائدة من وراء ذلك بدون الالفة أيقدر الانسان من ذات نفسهِ ان ينطق بلغة او تراه يخاطب خيالهُ . ان الكلام انما هو لتأدية افكاره الى غيره فاذا لم يكن مترتبًا من طبعهِ للالفة لم تكن عطيَّة الطبيعة هذه الخصوصيَّة لهُ الَّا سدًى لا نفع منها . قال كبير فلاسفتنا الاكويني : « لمَّا كانت الطبيعة قد وهبت الانسان نعمة الكلام وليس الغرض منهُ إلا المواصلة بين الناس في ما يفيد وما لا يفيد وما يحسن وما لا يحسن الى نظير ذلك ولمَّا كانت الطبيعة لا تعمل شيئًا عبثًا لزم من ذلك ان الاختلاط بين الناس هو من الطبيعة وهذا الاختلاط بَنى البيت ثمَّ المدينة »

٣ ان في الانسان وجبلَّتهِ اميالًا مغروسة تميل بهِ الى مشاركة غيره بما لديه فالعالم مثلًا يحب ان ينشر علمهُ ومعارفهُ بين الناس كما يحب اذا كان في غمٍّ او فرحٍ انَّ يشاركوه ويشق عليهِ لو غادروه وشأنه . وهكذا لو رأى الانسان غيره مسرورًا او حزينًا فانهُ لا يتمالك من التأثر معهُ وبالاحرى لو رآهُ في طامَّة كبرى فلا يتمالك من المبادرة الى معاونته امَّا بيديهِ وامَّا بماله او على الاقل بلسانهِ . وهذا النوع الاخير اي المساعدة بالكلام كثيرٌ ورائج عند الكثيرين لا بل الاكثرين لكنهُ اذا لم يكن صاحبهُ قادرًا على غيره كان مقبولًا والَّا فلا . قال يعقوب الرسول : « ما الفائدة ايها الاخوة اذا رأى احدكم اخًا او اختًا عريانين وليس لهما طعام يوم وقال لهما اذهبا ادفئا واشبعا ولم يعطهما شيئًا »

٤ ان في الانسان استعدادًا للترقي والتكمّل الّا انّ استعدادهُ هذا لا يفيدهُ شيئًا من دون الالفة وهذا الاستعداد هو في الانسان دون باقي الحيوانات. فالحمار مثلًا منذ آدم حتى الآن والى منتهى الأيام لا يزال على ما كان وقس عليهِ باقي الحيوانات. واما الانسان فلِما هو عليهِ من التهيّؤ للترقي من ذات طبعهِ قد ترقّى وما زال يترقّى وما ذلك إلا لوجودهِ بين جماعات قد استجمعت قوى مختلفة واقتسمت بينها الاعمال فقام كلٌّ منها بما هو اهلهُ. وما توصّلوا اليهِ من الاختراعات والفنون والاكتشافات في احد الاجيال الغابرة تركوه بعدهم فتوارثه اهل الجيل التالي فتداولت الاجيال آثار اولئك الرجال وهكذا ما برح الانسان يتدرّج في مدارج المعارف والكمال ولولا ذلك لبقي الانسان على حالة واحدة

لا يخفى عليكم يا معاشر الادباء الفضلاء ان الناس هم بمنزلة قطع او اجزاء لمجموع الطبيعة بكاملها فلا يظهر ما عندها ولا يعرف ما هي قديرة عليهِ اذا ما اخذنا كلًا منهم على حدتهِ ولكن عند تاليفهم وضمّهم معًا جملةً تعلم عظمة مقدرتها فهم والحالة هذه اشبه شيء باعضاء جسم لا يتبدّى لهُ عمل ولا جمال الا باستجماع كل اعضائهِ. قال في الذهب قولًا خليقًا بان يكتب بماء الذهب. « ان الله تعالت حكمتهُ لمّا شاء ان نكون متحدين مرتبطين بالفةٍ كاملة لم يخلقنا فقط من أبٍ واحد بل جعل فينا ايضًا افتقارًا الى بعضنا. وعليهِ جعل في كل من الارضين حاصلات وغلّات ليست في غيرها حتى انّ البشر في كل العصور يتبادلون ويتقايضون ما عندهم من الحاصلات فيرسل اهل هذه البلدة ما زاد عنهم من حاصلاتها الى البلدة الاخرى ويستأتون بدلًا منها ما يعوزهم من حاصلات تلك وبهذا تحصل بينهم المعاملات والمواصلات. وفوق هذا ان حكمة الله جعلت سرًّا عجيبًا في البشر وهو ان لا يكون احدهم عليمًا وخبيرًا في كل الامور بل اعدّت هذا لأن يكون تاجرًا وذاك فلكيًّا الى غير ذلك من تقسيم الطبيعة على افراد الناس بحيث لا ينفكُّ احدهم مفتقرًا الى الآخر ولا ينقطع بينهم رباط الائتلاف والحبّ » اه. قال شيشرون الفيلسوف الشهير : « ان يد الطبيعة لفّحت في كبدنا حبّ الالفة » اه

٥ واما الائمّة المتأخرون فقد توسّعوا في هذا البحث وبسطوه. ومنهم فيلانجاري القائل : « انّ بارئ الطبيعة لو لم يخلق الانسان للالفة لأتى أمرًا مخلًا في اجلّ اعمالهِ فما

تُرى كانت الفائدة من إعطائه عقلًا لا يتفتَّح ولا يتخرَّج الَّا بالمعاشرة والمخالطة ؟ ولماذا اعطاهُ قوَّة بها يطبق تصوراتهِ على الفاظ واصطلاحات تؤديها الى فهم الغير ؟ ولماذا لم يعطِ كلَّ النَّاس درجةً متساوية من القوَّة والعمل والفهم ؟ ولماذا زرع في قلوبهم بذار الرحمة والرأفة باقرانهم وجعلهم يتطلبون ارتياحهم وامتداحهم ويتوخون رضاهم وثناءهم ؟ لا بل لماذا جعل بينهم الغيرة والمنافسة فان هذه الانفعالات المغروسة في جبلَّة الطبيعة لا بل في الطينة الآدميَّة لم يكن لها موقع لو لم يكن الانسان من اصل طبعه معدًّا للالفة والاختلاط مع الناس » اه

سبحانك اللهمَّ من حكيم قدير ربطت البشر بعضهم ببعض بهذه الروابط القويَّة لا بل قيدتَّهم بهذه السلاسل العجيبة المسبوكة بحاجاتهم وعواطفهم واستكمال عقولهم ومعارفهم . . . امَّا نحن معاشر النصارى فانك لم ترضَ لنا بهذه القيود الطبيعيَّة بل جعلتَ لنا من وجهٍ الشرف والمجد قيودًا ادبيَّة ذهبيَّة لا بل سماويَّة الهيَّة اذ أمرتَ بان تكون الالفة والمحبَّة بيننا شعارًا لنا بكوننا تلاميذك واولادك لاننا كلنا اخوة متساوون في العباد والايمان والكنيسة ومعدُّون لوراثة ملك واحد في السماء فتكون المحبة والحالة هذه بيننا وهي اقوى رباط للالفة شريفةً روحانيَّة لا ارضيَّة حيوانيَّة . هذا فضلًا عن كون كلتا المحبَّتين مترتبتان علينا من وجهين من حيث كوننا اناسًا لابسين الطبيعة البشريَّة ومن كوننا مؤمنين بك وبانجيلك المقدَّس الذي قد تفضَّل علينا بان رسم لنا هذه الرسوم اللطيفة للالفة التي هي اشرف من عمل موسى في جانب بني اسرائيل . فانَّ وصايا الله كانت منقوشة من يد الطبيعة على صفحات لحميَّة في قلوبهم لكن لمَّا غشيتها غشاوة هبطت على عيونهم عاد فرسمها لهم وسطَّرها باحرف كبيرة على الواح حجارة . غير أنَّ عملك في جانبنا والحق احق ان يقال هو اجلّ واشرف واحلى والطف . فهناك نساعد الفقير بحسب مبادئ الطبيعة قضاء لواجب فينا او مآرب لنا اذ قلنا ان الانسان ميَّال الى الالفة لافتقاره الى ابن جنسهِ او لمعاطفة نحوه من نفسهِ انتظارَ ان يعاملهُ بالمثل واماَّ هنا في الشريعة الانجيليَّة المقدَّسة فاننا نبذل الاحسان الى الانسان كأننا نبذلهُ الى شخص السيد المسيح لهُ السجود والتسبيح وهو تعالت جودتهُ يحاسبنا به يوم الحساب العام تجاه الملائكة والامم ويعطينا بدل الواحد مائة لا بل اضعاف الاضعاف

اقول اخيرًا انهُ لقد ثبت ممَّا قدَّمنا انَّ الانسان وُلد للالفة ووجد لها والالفة

خُلقت لهُ ولكن يردُ علينا ثلثة سؤالات كانها اعتراضات : (الاول) كيف تعلَّم الانسان في بدء وجوده لغةً واين كانت الالفة يوم وُجد اوَّل انسان ليتعلم منها لغةً هي اوَّل اللغات ومُرضعها ؟ . (الثاني) وان كان الناس وُجدوا للالفة والالفة خُلقت معهم ليكونوا مؤالفين ومتآلفين فلماذا لم تكن الارض بينهم بالتساوي حفظاً لميزانيَّة الالفة او لماذا لا يتقاسمونها الان بالسَّواء دفعاً للخصام والقتال الحاصل بينهم بسبب عدم المساواة وهذه كلها آفات على الالفة التي اجهدت نفسك في بيان اركانها وتوضيح دليلها وبرهانها . امَّا الاعتراض (الثالث) وهو الاهمّ والاعمّ فهو ان كانت الالفة وُجدت للناس والناس وجدوا لها فلماذا نرى بينهم التباين العظيم في ما سوى ذلك من خيور الطبيعة وعطاياها وحظوظها وبلاياها وبعبارة ثانية لماذا نرى هذا غنيًّا سريًّا مع ما هو عليهِ من نواقص المعارف ونقائص الاعمال وذاك على ما فيهِ من سموّ المدارك وحسن المسالك في اسوأ حال يركض الحظُّ من امامهِ اكثر ما يركض هو وراءهُ

أهبتُ بالحظ لو ناديتُ مستمعاً والحظ عنّيَ بالجهال في شُغُلِ

فلو وجد التوفيق لهذا الامر بين الناس بان تكون الخيرات في هذه الدنيا بحسب استحقاقهم من جهة جدّهم وفضلهم وعقلهم لكانت الالفة بينهم دون خصام ولا تذمُّر فلا نعود نسمع زيدًا يقضي ايامهُ واعوامهُ متذمّرًا من معاكسة الدهر لهُ واينما رأيتهُ وجدتهُ متشكّيًا من قلَّة حظهِ من الناس لانهُ يرى عمرًا وهو احطُّ منهُ في كل ذلك بعكسهِ موفَّقًا ناجحًا متقدمًا . فهذه الاسئلة الثلثة تعارض مبادئ الالفة التي تكلمنا عليها على ما يظهر لطارحيها وهي لا تخلو من اهميَّة النظر فيها ولاسيَّما هذا الاخير المتعلق بتباين الحظوظ وتعاكس الطوالع فان فيهِ والحق يقال ما يقضي بالحيرة والدهشة لما في مطاويه من الغموض والاشكال حيث نرى هذا ذكيًّا تقيًّا مكدًّا مجدًّا ومع هذا نراه خاوي الوفاض بادي الانقباض وهو يصرخ مع الشاعر قائلًا :

اروم بسطةَ كفٍّ استعين بها على وفاء حقوق نابني قِبَلي
والدهر يعكس آمالي ويقنعني من الغنيمة بعد الكدّ بالقَفَلِ

ويزيدهُ في وغر صدرهِ من معاكسة دهرهِ ما يراه في جارهِ وهو قليل العقل والفضل ومع ذلك هو حسن الحال كثير المال لا تسع اوراقهُ ما يأتيهِ من النلال

اقول ان الجواب على هذه الاسئلة يروقكم وفيهِ تتمَّة الفائدة من خطابنا في

الالفة وهو من المباحث التي تدور عادةً في مجالس النـاس فيشوق كلاًّ الوصول الى معرفة دخيلة الامر منها. لكن لسوء الحظ قد عاكسني الوقت الآن فلم يبقَ لي منهُ ما يفي بالمطلوب. الَّا انهُ وعدني بفرصة أُخرى ان شاء الله فارجو قبول العذر والاخذ بوعدهِ ولكن عدت فاسترحتهُ طالباً منهُ هنيهةً للجواب على السؤال الاوَّل دفعاً لما عساه يخالج صدور هؤلاء السائلين الثلثة من الخاتلة في المطل حتى اذا نال الاول منهم مطلوبه عاد الآخران على ثقة من الوعد. فاقول جواباً على (السؤال الاوَّل) وهو كما تقدَّم كيف تعلَّم الانسان الاول في بدء وجوده لغةً هي موضع لباقي اللغات وهل وجدت الالفة قبلهُ حتى يتعلَّم منها الكلام وهل يولد الآن احدٌ من الناس ينطق بلغـة دون ان يتعلَّمها والجواب هو ان اصدق تاريخ للكون البشري وهو الكتاب المقدَّس قد افادنا ان الله تعالى جلَّ جلالهُ وتسامى كمالهُ قد خلق الانسان الاوَّل كاملاً مستوفياً كل ما كان لازماً من المعارف لادارة المعيشة لانسانيَّة: ولمَّا كان معدًّا لأن يكون ربَّ عائلةٍ عظيمة اعطاه من العمر جانباً عظيماً ٩٣٦ سنة ليعلِّم اولادهُ ونسلهم ما كان لازماً لحياتهم وذكر هذا الكتاب العزيز أن آدم سمَّى كلاًّ من الحيوانات باسمائها وكان كما سمَّاهُ وبهذه العبارة اشار الى انهُ كان يعرف لغةً وكان يعرف ايضاً طبائع تلك الحيوانات وخصائصها والَّا لما كان كلّ حيوان كما سماهُ. ثمَّ ذكر ان الله لم يستحسن ان يكون آدم وحدهُ بل خلق لهُ معيناً واليفاً وهي حوَّاء. قال فيلسوفنا الشهير ماو توما: «ولمَّا كانت الاشياء في البـدء أُبدعت من الله لا لتوجد في انفسها فقط بل لتكون مبادئ لغيرها ايضاً صدرت على حالٍ كاملة لتقـدر ان تكون فيها تلك المبادئ. والانسان يقدر ان يكون مبدأً لآخر لا بالتوليد الجسماني فقط بل بالتعليم والتدبير ايضاً. ولهذا كما أُبدع الانسان الاوَّل كاملاً في البدن ليقدر حالاً على التوليد كذلك أُبدع ايضاً كاملاً في النفس ليقـدر حالاً على تعليم غيرهِ وتدبيرهِ. وليس لاحد ان يعلِّم ما لم يكن هو عالماً ومن ثمَّ أُبدع الانسان الاوَّل عالماً بجميع الاشياء التي من شأن الانسان ان يتعلمها وهي جميع تلك الاشياء الموجودة بالقوة في المبادي الاولى البينة بانفسهـا اي جميع ما يقدر الناس ان يعرفوه بالقوَّة الطبيعيَّة. ثم انَّ تدبير الانسان لحياتهِ وحياة غيرهِ لا يقتضي فقط ما يمكن معرفتهُ بالقوَّة الطبيعيَّة بل معرفة ما لا تصل اليهِ المعرفة الطبيعيَّة ايضاً من حيث ان حيرة الانسان متَّجهة الى غاية فائقة الطبع كما اننا لا بدَّ لنا في تدبير حياتنـا

معرفة عقائد الايمان وعليه فالانسان الاول قد بلغ من معرفة هذه الامور الفائقة الطبع مقدار ما كان لازماً لتدبير الحياة الانسانيَّة باعتبار تلك الحال ». ثم زاد هذا العلاَّمة على هذا الكلام فقال : « انَّ آدم وضع اسماء لجميع الحيوانات واسماء الاشياء مناسبة لطبائعها فاذن كان آدم يعلم طبائع جميع الحيوانات وبجامع الحجَّة كان يعلم جميع الاشياء الأُخر » انتهى قول هذا الفيلسوف

ومما تقدَّم عرفتَ ان آدم الجدّ الاول للجنس البشري خُلق من الله متعلماً لغةً وكل ما كان لازماً لادارة المعيشة وها ان بكرَي اولاده قاين وهابيل اتخذا لمعيشتهما صناعة الزراعة ورعاية المواشي وتربيتها وهذان الفنَّان هما الاولان للمعيشة البشريَّة وعليهما مدار التجارة والمعاملات وهما مصدر الثروة والاستغلال. ثم ذكر الكتاب عن ابن قاين المدعو اخنوخ انهُ بنى مدينةً ثم ذكر عن يوبل انهُ كان يضرب بالعود والمزمار وهو فن الموسيقى الذي يطرب الخواطر ليس من الانسان فقط بل من الحيوانات ايضاً. وها انَّ الاقدمين كثيراً ما ذكروا عن رعاة المواشي ضرب العود والمزمار إشاراً بما قدمنا من ان هذا الفن الشريف وهو الفن الموسيقيّ قد وجد منذ الاول مع الانسان الاول. ثم ذكر الكتاب ان توبال قاين وهو اخو يوبل المذكور كان الضارب لكل آلة من حديد ونحاس وذهب وهذا العمل الكبير يستلزم علم كشف المعادن والمناجم ولا تخفى اهميَّة هذا العلم ونقول بالاجمال اذا نظرنا الى الشعوب القدماء كالمصريين والفينيقيين والاسرائليين والاشوريين والفرس واليونان وغيرهم من امم الشرق المتأصلة في القدامة وجدنا الفنون والصنائع والاختراعات والعلوم باجمعها كانت زاهيةً زاهرة عندهم وكثيرٌ منها باد معهم وبعض ما تبقَّى من آثارهم لا نعرف ونحن في عصر النور كيف عملوه . . .

فكيف يسوغ والحالة ما ذكر ان نحطَّ بالانسان الى المنزلة السافلة التي اراد البعض ان ينزلوهُ فيها خالياً عارياً من كل علم وادب وفهم كانما هو بهيمة ترعى في البراري والقفار على حين انهُ هو السيد العظيم الحكيم الذي وحدهُ قدر ان يعرف كل ما في هذه الخلائق والكائنات ارضيَّة وسماويَّة من الغوامض والاسرار ومن المنافع والاضرار. فقد هبط بطون الارضين فعرف خزائنها وغاص في أعماق البحار واستخرج درَّها ودفائنها وجاب هذه الكرة التي هو عليها فعرف طبائع وخصائص كل ما فيها من نبات وجماد وحيوان ودبيب وطائر. ثم طار محلِّقاً ببصره في الجوّ فوقه الى الكواكب السوَّية

كالشمس والقمر والنجوم فعرف مداوها وادوارها وعدَّد ساعات ليلها ونهارها فاستخلص من كل مباحثه هذه ما عاد عليه بجزيل النفع في تدبير حياته ورفاهيته حتى لو قدرنا ان نعدّ ما عمله الانسان من اختراعات واكتشافات وفنون وصنائع لا تقتضي ذلك منّا اعواماً ومجلّدات ضخاماً وكل هذا دليل ساطع كالشمس وسط النهار على ان الانسان لم يوجد قط كما احبُّوا ان يوجدوه بهيمة ترعى عُشب الارض. فلو رفعنا الانسان من هذا الكون لخلنا الارض عادت ثانيةً «توه يوه» كما قال الكتاب اي خاوية خالية والسرُّ بالسكّان لا بالمكان

امّا انتم يا معاشر الادباء ارباب هذه الاخويات والجمعيات الكريمة فلقد استجمعتم والحقُّ شاهد لكم من منافع الانسانيّة ومحاسنها اسماها واسناها اذ اخذتم من عواطف البشريّة اشرفها واحلاها وهي عاطفة الرأفة والحنان وعلى هذه القاعدة الذهبيّة بنيتم معاهد اخوياتكم وجمعياتكم فتفانيتم في محبة القريب وتفانيكم هو حياة وعمران. وبذلتم يجانب المسكين الدراهم دون التفات الى ذهاب اموالكم اعتقادًا منكم بان هذه التجارة كلها ارباح. ثم ان كانت الالفة للانسان مورد تهذيب ونجاح فالجمعيّة مؤلفة من نخبة شبّان ادباء علماء ذوي حميّة واريحيّة ومهزّة نفوس عزيزة ابيّة ومكارم اخلاق ومقاصد نجاح وتراق هي اولى بذلك. وهؤلاء انتم تعلمون ان جميع العلوم والفنون والصنائع ما ترقّت بالحقيقة الّا بالشركات الخصوصيّة. ومن المعلوم الثابت: ان القوّة بالاتحاد. وهذه الممالك العظيمة ما تألفت الّا من بلدان والبلدان تألفت من مدن والمدن من بنايات. وهاكم هذه القاعة التي انتم فيها ما قامت الّا من موادّ ضُمّت الى بعضها فتماسكت وتلاحمت فألفت معهدًا للاداب من اهل المشيب والشباب. وهذه دعائم الجسور واسانيد القصور فانها لا تكون قويّة الا ان تُضمّ الى بعضها متشابكة متماسكة حتى اذا صُدم احدها من جهة صدمة تلقّت كلها تلك الصدمة فلا تؤثّر فيها. وهذه جحافل الدول التي تحمي رؤوس الملوك وتيجانها وتردّ الغارات عن رعاياها وبلدانها فان قراها انما هي بالاتحاد. وما لنا وهذه المشابهات والمقايسات وكلٌّ منا لنفسه اقوى دليل اذ نحن ضمن هذه غرفة القراءة التي باتت مجتمعاً للاداب والمعارف الحميدة جامعة في خزائنها جانبًا غير قليل من التآليف المفيدة كما قد جمعت من الادباء والخطباء وذوي المكارم النبيلة والمعارف الجزيلة جانبًا جلوساً على كراسيها وفيها اذن اجتمع من

من العلماء والخطباء ضدان متكلم وصامت وناطق وساكت . وللتوضيح اقول ان اصحاب التآليف المنضودة في هذه الخزائن يعلموننا وهم صامتون فنحن في وسطها مخاطبون ومتخاطبون ومتكلمون ومكالمون ومن تراهُ يخاطب معلمهُ ومعلمهُ يكالمهُ ولا يستفيد . واي مجلس خيرٌ من مجالس العلماء الادباء . واي وقتٍ اثمن من هذه المواقيت التي احرى ان تدعى بواقيت . واي شيء احبّ لديك من ان تفيد وتستفيد . فلست ارى والحالة هذه الّا ما ترون من ان هذه الغرفة التي هي مجموعة جمياتكم صارت كمدرسة عالية لنا الّا انها لا تُطالب عن اجرة التعليم الا بالرضى والدعاء الحميم فسعدًا لكم يا ذريها وشكرًا لكم يا منشئيها . اه

عواقب الطمع

بقلم الاديب نجيب افندي المشلاني

كان جَبْر مطبوعًا على البخل حريصًا على جمع المال فاغرًا فاه نحو الدراهم اتّخذ مئون لهُ الهًا فلم يعبد سواهُ وكان مع ذلك فظّ الطباع سيّئ الاخلاق اذاق زوجهُ ضروب الآلام فعجّل ساعة موتها فماتت وهي في ربيع عمرها تاركةً لهُ ابنةً صغيرة تدعى « لطيفة » كانت سلّمتها قبل وفاتها الى راهبات الحبّة ليقمنَ لديها مقام امّها . فاعتنينَ بتربيتها ايّ اعتناء اذ توسّمنَ فيها دلائل الذكاء والميل الى الفضيلة . فشبّت لطيفة على التقوى ورسخ الدين في قلبها وكانت مع ذلك صناع اليدين ماهرة في كل الاشغال محبوبةً من جميع معلّماتها واترابها

فلمّا انهت دروسها وعادت الى بيت ابيها تولّت كل اعمال الخدمة وقامت بامور البيت قيامًا ضُرب بهِ المثل بين كل اهل القرية . وكان الجميع يشيرون اليها بالبنان ويدعونها بالملاك لتقواها وحشمتها ومثابرتها على الاسرار . اما ابوها فكانت لطيفة تبذل وسعها لتستميل قلبهُ وتزرع فيهِ بذر النزاهة والاستقامة

وكان جبر في اوّل امرهِ قد تأثّر من سجايا ابنتهِ فقدّرها حق قدرها الّا انّ سوء طبعهِ ما لبث ان تغلّب عليهِ فنرى ان يجعل كريمتهُ كآلةٍ لسدّ مطامعهِ . ففي احد الايّام دعاها اليهِ وقال لها : انكِ يا لطيفة ذكيّة الفؤاد متوقدة الذهن فيكِ من الخصال الحميدة ما يندرُ وجودهُ في غيركِ وانّما ذلك لا ينفعنا فتيلًا وها انا منتظرٌ منكِ اكثر ممّا سبق